التراث الحداثة والاستشراق في فكر ابن ابي شنب جمع أم تضاد

أ/ لعمى عبد الرحيم
جامعة المدية

المقدمة

الوقوف عند إنتاج هذا الرجل الفكري و الأدبي يرجع فيه كل باحث لصورة بن أبي شنب وهو يصوب حبره وسط زي عربي يكسو جسده و يطبع خياله في إعادة رسم طريق أمته و هويتها وإخراجها من براثين الاستعباد و الإنثدار الحضاري .

من هذا المنطلق تأسس لدي إشكال مؤداه كيف أن العلامة استطاع الجمع بين مفاهيم في انتاجاته من التحقيق إلى التأليف و الفهرسة و التقديم ، يتراءى للعيان أنها مفككة من حيث الطرح المعرفي أو الابستمولوجي (التراث ، الحداثة) ثم ظاهرة الاستشراق كصورة للمستعمر الغربي و تلك النظرة الدونية الحقيرة لكل ما هو شرقي على أنه المعصرن والمحدث للشرق وهي في الحقيقة جمعت أكثر مما فرقت وخدمت اكثر مما جعل انتاجه اعني ابن ابي شنب يطبع ثراث الجزائر بالعالمية, ولاغروان تترترجم اعماله الى لغات عدة ,وان ينكب عنها الباحثون دراسة وتمحيصا الا خير دليل و لقد قسمت بحثي الى مقدمة و مبحثين في المبحث الأول تحدثت عن المفاهيم المذكورة آنفا التراث و الحداثة و الاستشراق وتلك العلاقة الموجودة بينها من حيث الطرح المعرفي و في المبحث الثاني حاولت أن أذكر تجليات الفكر الشنبي وأخيرا خاتمة من خلالها ذكرت بعض الاقتراحات

المبحث الأول : في تحديد المصطلح التراث – الحداثة و الاستشراق –

الاشتغال بالتراث و الموروث الثقافي الفكري لا يكون هذا الا بمعرفة التراث بصورتين الصورة التقليدية التي نجدها لدى المثقفين المتخرجين من المعاهد الأصلية كالأزهر والقرويين و جامع الزيتونة و يقوم منهجهم على ما يسمى بالفهم التراثي للتراث و الفهم هذا يأخذ أقوال الأقدمين كما هي و ما يميز هذا النوع من لمنهج هو الاستنساخ و يعاني هذا المنهج من آفتين كما يقول الجابري غياب روح النقد و فقدان النظرة التاريخية .

ما الصورة العصرية و هي الصورة الاستشراقية نسبة إلى المستشرقين و من سار على منوالهم من الباحثين هناك جانبان يتصلان بهذه العلاقة الصريحة حينا و الخفية حينا آخر إذ أن كثيرا ما يعاب ارتباط الظاهرة الاستشراقية بالظاهرة الاستعمارية و يمكن الذهاب بعيدا إلى الرواسب الدفينة و التي تعود إلى الصراع التاريخي بين المسيحية و الإسلام خلال القرون الوسطى و التي تؤسس إلى كثير من المطاعن التي وجهها بعض المستشرقين إلى الفكر العربي الإسلامي . و من ثمة يطرح السؤال كيف نتعامل مع التراث و هل الاشتغال به يعتبر ردة فكرية ولماذا هذا الاهتمام به أنرى رأي أولئك الذين وصل بهم الحد إلى القول أن ظاهرة مرضية عصاب جماعي بعد نكسة 1967 فارتدوا ناكصين إلى الوراء إلى التراث و يقولون أن الاهتمام بالتراث يصرع عن الاهتمام بالحداثة و متطلباتها و أن التراث مجرد بضاعة تنتمي إلى الماضي و بالتالي لا يشتغل بها.

هل الحداثة كما يرى محمد عابد الجابري ليس رفض التراث و لا القطعية مع الماضي بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة التعامل مع التي تسمى المعاصرة و المعنى مواكبة التقدم الأصل على الصعيد العالمي . فالحداثة تعني أولا وقبل كل شيء حداثة المنهج و حداثة الرؤية و الهدف و تحرير تصورنا من البطانة الإيديولوجية و الوجدانية التي تضفى عليه داخل وعينا طابع العام المطلق و تنزع عنه النسبية و التاريخية فكلما يطرح موضوع التراث ينبري أنصار الحداثة إلى القول أن أحياء التراث والعودة إليه تعني الابتعاد عن التقدم و الحضارة ويعني الجمود و التخلف و كلما طرح موضوع الحداثة و العصرنة ينبري أنصار التراث إلى القول أن هذا يعني التغريب و بالتالي الانفصال عن التراث و التنكر للهوية و الدين [2] .

لقد أخذت لفظة الحداثة مفهومات متعددة و تعاريف مختلفة و هي في جميع الحالات تعتبر امتدادا طبيعيا للقلق الأوروبي لاضطراب أفكاره و مبادئه وفلسفاته و آدابه و لقد ظهر تطور هذا القلق و الاضطراب ابتداء من عصر الظلمات إلى الكلاسيكية و الرومانسية والواقعية و الرمزية والسريالية و الوجودية و غيرها .

يعرف رولان بارت 1915- 1981 الحداثة قوله [3] " في الحداثة تنفجر الطاقات الكامنة وتتحرر شهوات الإبداع في الثورة المعرفية مولدة سرعة مذهلة وكثافة مدهشة أفكارا جديدة و أشكالا

جديدة غير مألوفة و تكوينات غريبة و أقنعة عجيبة يقف بعض الناس منبهرا بها و يقع البعض الآخر خائفا منها هذا الطوفان المعرفي يولد خصوبة لا مثيل لها ولكنه يغرق أيضا " .

و يقول هربت ريد في كتابه الفن الآن " إننا نلمس الآن ابتعادا عن كل أنواع التراث ... لقد وجدنا أنفسنا فجأة نكفر بجهود خمسة قرون من الإبداع الفني " [4] .

فالحداثة في رأي الحادثين انقطاع معرفي ذلك أن المصادر المعرفية لها لا تكمن في المصادر المعرفية للتراث في كتب ابن خلدون أو في اللغة المؤسساتية كونها مستمدة من الفن أصلا فهي محاكاة للعالم الخارجي ، فالحداثة إذن انقطاع لأن مصدرها المعرفية هي اللغة البكر و الفكر العلماني و كون الداخل مصدرا للمعرفة اليقينية كما قد تكون هذه اللفظة مرتبطة بالتعارض إذ يرى صالح جواد طعمة في مقالته – الشاعر العربي المعاصر ومفهومه النظري للحداثة . الحداثة العربية في جوهرها تعكس معارضة جدلية ثلاثية الأبعاد معارضة للتراث و معارضة للثقافة البرجوازية في مبادئها العقلانية و النفعية و معارضة لذاتها كتقليد أو شكل من أشكال السلطة [5] .

ثم عطفا على مسؤول الاستشراق يرى رودي بارت أن الاستشراق هو(6) " علم يختص بفقه اللغة خاصة و أقرب شيء إليه نفكر في الاسم الذي أطلق عليه كلمة استشراق فهي مشتقة من كلمة شرق و هي تعني مشرق الشمس و بهذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي " في حين يتناول المستشرق الفرنسي Maxime Rodri son أم من أسباب ظهور الاستشراق في اللغة الفرنسية عام 1799 ثم في اللغة الانجليزية عام 1838 إنما هي الحاجة إلى إيجاد فرع متخصص في فروع المعرفة لدراسة الشرق و يضيف بأن الحاجة كانت ماسة لوجود مختصين للقيام على إنشاء المجلات و الأقسام العلمية .

لكن أهم شيء قدمه الاستشراق الفرنسي خصوصا هو تطبيق المنهج التاريخي حيث كان التراث العربي الإسلامي لأول مرة في التاريخ حيث كان التراث العربي الإسلامي لأول مرة في التاريخ حيث كان التراث يدرس بطريقة تقليدية تبجيلية و ما ورائية ثم أصبح يدرس بطريقة تاريخية سسيولوجية أي من خلال موضعه ضمن الظروف التاريخية و الاجتماعية التي شهدت نشأته و تطوره وتحولاته عبر التاريخ.

المبحث الثاني : قراءة في الفكر الشتي من خلال مفاهيم التراث و الحداثة و الاستشراق

يجمع محمد بن شنب بين الثقافة العربية و الثقافة الفرنسية ويظهر أنه على اطلاع واسع بلغات مختلفة كالتركية و الاسبانية و الايطالية و كما يبدو أنه شديد التمسك بالدين الإسلامي و اللغة العربية وأيضا من رواد الطليعة العربية في مجال التحقيق و الترجمة فقد قدم مجموعة من الكتب تعتبر لغاية الآن مرجعا هاما في الدراسات و المراجعات العلمية فمثلا يعتبر كتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان الذي ألفه الشيخ بن أحمد الملقب بابن مريم التلمساني من بين الكتب التي وقف على طبعها و اعتنى بمراجعتها عندما كان مدرسا بالمدرسة الثعالبية الدولية و مدرسة الآداب العليا بالجزائر و قد تم نشر التحقيق سنة 1908 بالجزائر بالمطبعة الثعالبية فهل هذه الأعمال التي تنصب في مجال تحقيق المخطوطات وترجمة تراث الجزائريين هي شكل من أشكال المقاومة الثقافية للاستعمار و هل عودته إلى تراث الجزائريين الذي يمتد قبل الوجود العثماني و الاحتلال الفرنسي مثلت شكلا من أشكال الإيقاظ للتراث الإسلامي في الجزائر و بالتالي يكون العلامة سباقا إلى المقاومة الثقافية عن طريق البحث العلمي و لو قبل حركة جمعية العلماء المسلمين . فقد كان العلامة ميالا إلى تحقيق كتب لها علاقة بالتاريخ الثقافي و هي مرحلة من مراحل بناء الذات الجزائرية التي تعرضت للهدم والتشويه بتاريخها الثقافي و الديني ويمكن أن نذكر من تلك الأعمال التي أعادت بالثقافة الجزائرية إلى منابعها الأولى كتاب البستان 1908 و كتاب الدراية المنشور عام 1910 و كتاب طبقات علماء إفريقيا المنشور مع ترجمة فرنسية و كتاب الذخيرة السنية المنشور عام 1921 .

و لا يكتفي العلامة في تأصيل الثقافة بل ويذهب إلى أبعد من ذلك فهو يرى أن الأدب الأوروبي فقد أخذ الكثير من الثقافة الإسلامية ففي دراسة كتاب الكوميديا الإلهية لدانتي يلفت ابن شنب إلى الجانب الإسلامي فيقول أن استلهام أليغري دانتي من رسالة الغفران لأبي العلاء المغربي يبدو واضحا جليا فهناك تشابه بين مقاطع كثيرة من أعمالهما و تحمل هذه الدراسة أبعادا سياسيا ففي الوقت التي كانت تتباهى فرنسا وتنادي إلى رومانية الجزائر و مسيحية التاريخ فيها كتبرير لوجودها بالجزائر يوجه محمد بن شنب رسالة إلى فرنسا و لو كانت ضمنية مفادها أن لأوروبا جذورا ثقافية تمتد عميقا في الإسلام و هو بذلك يشير إل أن التبادلات الثقافية طبيعية بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط و لا علاقة لها بتبرير وجود سياسي أو عسكري بالمنطقة .

و في المراحل الأخيرة من عمره يقدم إلى الانتماء للمجمع اللغوي بدمشق سنة و هو ما أثار 1920 و هو ما أثار حفيظة فرنسا التي كانت ترى في العروبة و الإسلام خطرا على وجودها ويؤكد هذا ما ورد في قاموس المستشرقين الذي قام بالإشراف عليه فرنسوا بويون الذي يقول [7] " بحفاظه على هويته الإسلامية وبعدم الدخول تحت رؤية المواطنة الفرنسية فإن ابن شنب ابتعد عن التوجه السياسي العام للحكومة الفرنسية التي كثيرا ما كانت تخشى من كل ما يرمز إلى العروبة و الإسلام لقد عبرت عن خوفها حين أصبح بن شنب حاملا للقومية العربية وذلك بعد استضافته سنة 1920 بالمجمع العربي بدمشق " .

و المحقق أنه منذ أن بدأ العلامة يحتك بالمستشرقين حسب الباحث بشير كحيل أخذ عنهم قواعد المنهج و ربما وسع لديه هذا الاهتمام تمكنه من عدة لغات أعانته على إدراك أسرار و حفايا النصوص المحققة و كان يبدو أن فكرة إحياء التراثقد أخذت قسطا وافرا من انشغاله بحيث شكلت لديه هاجسا ظل يؤرقه طوال رحلاته العلمية بين دفات الكتب. وكان يقوم بعمل المتحقيق بمفرده أو بمعية بعض المستشرقين الذين عاصرهم و تعلم الفن منهم و هذا ما نلحظه في إعداد فهرس تسلسلي لمطبوعات المغرب الأقصى نشرته المجلة الإفريقية سنة 1920 حيث وضعت بمعية المستشرق ليفي بزوفنصال Levi Provençal كما عمل على إحياء وضبط مؤلفات و التثبت من صحتها وإخراجها وفق منهج علمي محكم عرف بمنهج التحقيق و قد استفاد أهم أسس هذا المنهج من اشتغاله بدراسة و تدريس علم الحديث و من صلاته العلمية بالكثير من المستشرقين أمثال رنيه باسي RENE Basset وفانغان FAGAN وكان KAT والدين كانت له معهم صداقات علمية ومرسلات من الخارج أمثال كوديرا KODERA وميقال أسين بلاسيوس MIGUEL Asin Palacias .

ثم إذا عدنا إلى مصنفات الأمثال خاصة الشعبية في الجزائر فالمؤلف لم يكيف بجمع الأمثال وتصنيفها وفقا للحروف لتسهيل البحث بل قام بترجمتها مرفوقة بالشروح و تعرض إلى بيان استعمالاتها و البحث بالنسبة لما يعادلها خاصة بالفرنسية كما سجل الأماكن التي سمعها فيها مستعملة و أشار إلى ما يوازيها في الأمثال الموجودة في مصر و سوريا والجزيرة العربية و بيزنطة ثم وجب الإشارة حسب الدكتور عبد الحميد بورايو أن المقدمة [8] التي وضعها محمد بن شنب لكتابه قيمتها الانتريولوجية و التاريخية و الحضارية حيث يقول العلامة محمد بن شنب [9] " توضع الأمثال بصفة

عامة ما تاريخ الحضارة والأفكار التي أنتجتها مختلف التحولات منها ما ينتمي لمناطق ومنها ما ينتمي لحواضر..... و يستطرد قائلا و هي نسبيا مستمدة من موضوعات دينية أو ماله علاقة بوجود الإنسان..." .

و يرى الدكتور عبد الحميد بورايو أنه يبدو واضحا من خلال هذا الرأي الذي يسوقه ابن شنب حول الأمثال التأكيد على الأهمية التوثيقية للمثل الشعبي و هي القيمة الأساسية التي أدركتها مناهج البحث السائدة في المستعمرات ووجهوا تلاميذهم من الأهالي للعناية بها باعتبارها الهدف الأساسي من بحث أشكال التعبير الشفهي.

حيث يذكر المستشرق الفريد بيل ALFRED BEL في مقاله المنشور في المجلة الآسيوية سنة 1929 " لقد شرف ابن أبي شنب العلم الفرنسي في الدراسات الشرقية الجزائرية التي مونه و التي كان بعد ذلك من أبرز ممثليها و أساتذتها ، لقد شرف فرنسا عندما كان على هذه الأرض الجزائرية واحدا من ألمه أبنائها بالتبني ومن أكثرهم اعترافا بالجميل " .

الخاتمة :

محمد بن شنب المحقق المؤلف ... ما يل عنه من انه درس عند المستشرقين و تتلمذ على يدهم و خدم العلم الفرنسي فالأمر هذا لا يساوي قيد أنملة في عمله الكبير الذي قام به في فهرسة الكتب وتحقيقها و ترجمتها و إخراج كثير من الدروس النفسية من صناديق اللامبالاة والإهمال إلى يد المطلعين و القراء وسواء استفاد الغرب من تأليفه و تحقيقه و ترجمته فنحن أيضا استفدنا من إنتاجه الأدبي و الثقافي و مهما يكن فقد أفادنا العلامة من مناهج الغرب في التوثيق و التأليف و انبرى يقرأ التراث قراءة متجددة مخالفة لما فعله الأقدمون و أضفى على كثير من كتب التراث ظواهر جديدة كالظاهرة التاريخية و الانتربولوجية و السوسيولوجية محمد بن شنب يبقى ظاهرة ثقافية تحتاج إلى الدرس وإلى تعليمه للنشر لأنه استطاع في وسط ثقافي جزائري مليء بالخذلان أن ينبغ و يظهر ويعرفه القاضي و الداني فكيف أن نقرأ شهادة المستشرقين و شهادة تلاميذته و أصدقائه و حتى رواد الحركة الإصلاحية في الجزائر .

لحقا إنه ظاهرة ثقافية و إنسانية جمع في جسده التراث و الحداثة و في فكرة مفاهيم متضادة استطاع أن يعيش بها و لها حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى.

- **قائمة المصادر والمراجع:**

(1)سمير الديوب، مصطلح الثنائيات الضدية، مجلة عالم الفكر، سبمتبر 2012، الكويت،ص120.

(2) عبد الغني عماد، التراث والحداثة، إشكاليات التواصل الحضاري، عن موقع Ketab.Pedia.com.

(3) عدنان علي رضال النحوي،تقويم نظرية الحداثة، دار النحوي للنشر، 1994، ص 26

(4) المرجع نفسه، ص 27

(5)بيتر بروكر ، الحداثة وما بعد الحداثة، ترجمة عبد الوهاب علوب، ط1، 1995، ص42.

(6)رودي بارت، الدراسات العربية والاسلامية في الجامعات الالمانية، ترجمة مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي، القاهرة، بدون تاريخ، ص11.

(7) FRONCOIS Pouillon, dictionnaire des orientalistes de langues française, collaborateur jean ferreux lu cette **valenci**, collectif publier par Karthala, édition 2008,pp79-80.

(8) عبد الحميد بورايو ، في الثقافة الشعبية – التاريخ والقضايا والتجليات– فيسير للنشر، 2011 ،من ص 134– 148.

(9) المرجع نفسه ص 148.